

نهاية المقدّس والدين البديل

ما بعد الدين في فلسفة دافيد هيوم



نورة بوحناش
باحثة جزائرية

مؤمنين بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث
www.mominoun.com

نهاية المقدّس والدين البديل¹

ما بعد الدين في فلسفة دافيد هيوم

¹ نشرت هذه الدراسة في مجلة يتفكرون، العدد السابع، 2015، التي تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

ملخص:

تجتمع الغاية النهائية للنقد الإستمولوجي الذي قاده هيوم في معترك الفلسفة الحديثة في إعادة تنظيم مسألة المعتقد الإنساني، وعلى الرغم من العلاقة التي تجمع هذا النقد بالعلم، إلا أنّ تقويض ركائز الدين يؤلف المنطلق الرئيس لهذا النقد، يبدو ذلك في بناء المعرفة على الحس، وتفكيك سلطة الميتافيزيقا، وتحرير الضمير الأخلاقي من هيمنة العقيدة، وحوار يذهب إلى البحث فيما إذا كان الإنسان بحاجة إلى معتقد، وهل يحمل بين جنباته إيماناً طبيعياً؟ كان لشكّة هيوم أثرها العارم على القادم من فلسفات القرن العشرين، عبر مسألتين أساسيتين دافع عنهما هيوم بشراسة عقلية شديدة، وهما: من ناحية أولى، الشك في بدايات العقل، وهدم حقل الميتافيزيقا. ومن ناحية أخرى، لا وجوب من الوجود، وهي المقولة الهيومية الكبرى التي مثلت بدايات الفلسفات الوضعية والعلمانية القادمة في أفق القرن العشرين.

مقدمة

الحداثة وتواري المقدس: لم تكن استفاقة العقل الغربي إلا بثورة هزت حقل المفكر فيه في العصور الوسطى، فتحدّد مسار آخر لهذا العقل تجلّى في ذلك العمل الدؤوب الذي أداه رجال النهضة، انطلق من النزعة الإنسانية التي انبرت لنقد اللاهوت المسيحي، حيث سيكون السؤال عن تاريخية الكتب المقدّسة سؤالاً راجحاً وضرورياً، فهل من الممكن أن يحافظ كلّ نص على نقائه وقد امتدّ عبر زمان سحيق؟ كما أنّ تصور الإنسان الإله يثير حفيظة كلّ فطرة عقلية سليمة، فهل يمكن التصديق بولادة إله من تزواج الناسوت واللاهوت؟ فما هي ذات المسيح إذن؟ هنا تساءل الإنسانيون عن القرابة الجامعة جمعاً غريباً وغير معقول بين الناسوت واللاهوت! كما سنتركز استفاقة العقل الغربي على ذلك الانقلاب الذي أحدثه فلاسفة وعلماء من برونو إلى كوبورنيك وغاليلي، وقد تحقّقوا عبر المشاهدة الحسية والعقلية بكوسموس آخر، يتناقض كلياً مع ذلك الذي احتفت به الكنيسة معتمدة على تأويل لخاصة الفهم الإغريقي للطبيعة.

حتماً سيسير منظار غاليلي على نقيض يقين الإيمان، لتتحول المركزية الكونية من مركزية الأرض إلى مركزية الشمس، وعلى الرغم من الأحداث العنيفة التي رافقت حياة غاليلي، فقد أصرّ أمام قضاة محكمة التفتيش على خلاصة مشاهداته الدقيقة، ملقياً بالكلام في سرّه، وقد تيقن من أنّ الأرض تدور²، هو الكلام الذي ستتابع بعده الانهيارات المتتالية لسلطة الكنيسة، ومن ورائها العقيدة المسيحية، لتسير في درب النقد والإصلاح، ثم النهاية عندما يعلن نيتشه على تخوم القرن العشرين موت الإله الضعيف، وقد خلفه إله الأرض القوي³، إنه الإنسان وقد انفصل انفصلاً كلياً عن الغيب.

لا ريب أنّ خلاصة نهضة العقل وانتصاراته المتتالية هي انحسار لسلطة مؤسسة الأكليروس، ليعتلي اللوغوس مهمّة نقد المعرفة الدينية بوصفها معرفة إنسانية بحتة، فلا توجد معرفة تعلو على وظيفة العقل الإنساني، ولذلك سيكفّ المقدّس عن أن يعتلي مقام المقدّس، وتصبح الكتب المقدّسة صحائف للقراءة الإنسانية الناقدة، لتتعرّز هذه القراءة مع النمو المنهجي للعلوم العقلية والإنسانية التي جعلت من الدين موضوع الدرس العلمي، فانبثقت علوم من قبيل علم الدين، إنثروبولوجيا الدين، وهكذا ستتمكن خلاصة اللوغوس من تعديل ماهية الدين، ليكون بمثابة تجميع ثقافي خالص، بدأ مساره التاريخي من تعدد الألوهية إلى حد الإيمان بالدين الواحد⁴.

1- من بين هؤلاء الإنسانيين الذي دخلوا في عمل نقدي للمسيحية، إرسيموس دي روديдам Erasme de Rotterdam (1469 - 1536)، وعلى الرغم من انخراطه في سلك الكهنوت، أنه جال أوروبا مبشراً بدين فلسفي يعوض المسيحية، وهو ما اصطلح عليه فلسفة المسيح، وقد أحدث أثراً عارمة في الروح الشاملة لفلسفة عصر النهضة، التي كان لها دور فاعل في اعتلاء اللوغوس حق النقد لللاهوت، انظر في ذلك Encyclopédie De La Philosophie La Pochothèque 2002 P489

2- إرنست بلوخ: **فلسفة عصر النهضة**، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت لبنان، ط 1، 1980، ص 114

3- نتشه: **نقيض المسيح**، ترجمة علي مصباح، منشورات الجبل، بيروت بغداد، ط 1، 2011، ص 44

4- Philippe Testard-Vaillant: »La naissance de l'unique a l'aune des Polythéisme« in Les cahiers Science et Vie Aux »Origines de Dieux«, N0 113, Aout 2012 ?P8

كان العقل الحديث مرحلة حاسمة في مسار القراءة الناقدة للدين، لم يعد هناك إمكان لسيطرة العقيدة على العقل، تجلى هذا في مواقف الفلاسفة والعلماء الذين تفرّقوا في دروب الإلحاد، وتوقفوا عن الحكم فيما يخص العقيدة التي تسلم بوجود إله يدخل إلى التاريخ ويكلم البشر⁵، ويأمرهم بالفعل والترك، وستقود الخلاصة الإبيستيمولوجية لمفهوم الطبيعة التي أقرّها العلم - بوصفه اختباراً مزدوج الأداة بين الخبرة والعقل - إلى تأسيس بنية تفسيرية معقولة ترى نهاية سلطة الإله على الكون، وبناء نسق آخر مكنّ منه القانون العلمي، الذي بدا له الدور الحاسم في تفسير حركة الكون عبر القوانين المغناطيسية التي تسير حركة الكواكب⁶.

أمام البرهان الدامغ الذي قدّمه العلم، لم يعد اللوغوس ليفرد مقاماً للإيمان في التصورات العقلية والعملية للإنسان، لتؤلف التصورات العقيدة الموروثة عن العهدين القديم والجديد مجرد خيالات بشرية، فقد عسر على البشر التفسير المعقول، فاعتبروا أنّ الكون من تقدير قوى تفوق قدرة الإنسان، لينتقل هذا التفسير من قوى الطبيعة إلى تعدد الآلهة، ثم لتنتهي بإله عليّ قدير، إله ديانات التوحيد، هو عجز الطاقة البشرية عن تفسير معقول لمظاهر الكون، أدى بها إلى البحث عن قوى مفارقة تجعل الكون معقولاً وميسور التفسير، تتمّ الرجعة إليه في التشريع ويؤلف مرجعية الأفعال العملية.

وعموماً فإنّ لامعقولية تصور الإلهية في عقيدة الكتاب المقدّس، وعدم انسجامها مع تصورات العلم الناشئ أدى بباروخ اسبينوزا إلى النبذ من الجماعة اليهودية، أي إله يعوض فيزياء نيوتن التي قدمت حقيقة الاندماج بين العالم والقانون؛ ليمثل الإله الجديد مجموع القوانين الفيزيائية المتحركة، هنا تتوحد العلاقة العقلية بين الله والإنسان ليؤلفا واحداً لا ينفصم⁷.

لقد خلص العقل الحديث إلى تحييد الإله من كلّ تفسير وكلّ تشريع، لم يعد هناك دور له في عالم الظواهر الفيزيائية، فهو من العلل القديمة التي تمّ اكتشافها، وسينتهي أمرها بتبيين العلل المعقولة، «فأله كبير بحيث إنّه ليس في حاجة إلى أن يوجد، إنّ هذه هي ماهية صيرورة العلمنة التي أثرت بعمق في المجتمع الحديث [...] لقد انتهى الله من أداء وظيفة تفسير نظام الطبيعة»⁸، ولذلك سيطرت نزعة طبيعانية أدّت في نهاية المطاف إلى الشطب المتتالي لأشكال التفسير، فلم يعد هناك إلا القوانين الفيزيائية، ولا توجد علل أخرى تفسر العالم، ويبدو أنّ هذا الموقف الطبيعاني الشامل قد سار في شكل تعميمي عندما جعل التفسير الواقعي القائم على خلاصة المعرفة العلمية معياراً أوحّد للمعرفة، ومنها المعرفة الأخلاقية⁹.

يُعدّ الدين الطبيعي من المفاهيم الأكثر ترجيحاً، تعويضاً للدين القديم أمام الشك العارم الذي عمّ العقل بعد الثورة ضد العقيدة، لم يبقَ أمام هذا العقل إلا تعويض عقيدة السماء بعقيدة إنسانية معقولة تتلاءم مع الخلاصة

5- Marie-Françoise Balez: «C'est la révélation de dieux dans l'histoire qui unit les trois monothéismes» in Les cahiers Science et Vie Aux «Origines de Dieux», Op.cit P15

6- Hume: **Dialogues sur la religion naturelle**, traduit par M Malherbe, Librairie Philosophique J. VRIN 2005, P76

7- سبينوزا: **علم الأخلاق**، ترجمة جلال الدين سعد، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2009، ص 443

Charles Larmori: **Modernité et morale**, P U F 1ère Edition, 1993 P71 8-

Ibid. p26 9-

المعرفية التي يقدمها اللوغوس، بعدما انتهى من نقد المقدّس؛ لذلك ستنمّيز الفلسفة الحديثة بقراءات مختلفة لمفهوم دين طبيعي يتلمسه الإنسان في جنباته دون إملاء الكنيسة، إنه دين يحمل روح العقيدة الإنسانية التي تخلصت من قهر الكنيسة، وطمأنة الفؤاد بشكل مغاير للإلوهية، هو دين يزعم على الذهاب إلى ما وراء عقيدة السماء المتسلطة واللامعقولة.

هو الدين الذي يعبر عن حرية الضمير، وتثبيت لقدرة الإنسان في بنائه لعقيدته الخالصة دون الرجوع إلى سلطة المؤسسة الدينية، إنه «تعبير استخدم في القرن الثامن عشر، ويدلّ على مجموع عقائد تؤمن بوجود الإله وخبريته، وكذلك تؤمن بالروحانية وخلود الروح، وبالخاصية الملزمة للفعل الأخلاقي، ولذلك يعتبر الدين الطبيعي وحياً من الضمير، والنور الداخلي الذي يضيء كلّ إنسان»¹⁰. وهكذا يعوّض الدين الطبيعي، بوصفه خلاصة لوعي الأنسنة، مفهوم دين الوحي، وليتمكن الإنسان الذي تحرّر من سلطة الإكليروس من بناء دينه الفردي الخاص، ليصبح الدين مسألة فردية خاصة، أمّا الفضاء العمومي فهو فضاء المواطنة والحرية الفردية والحق الإنساني المكفول من القانون.

تجتمع الغاية النهائية للنقد الإبستمولوجي الذي قاده هيوم في معترك الفلسفة الحديثة في إعادة تنظيم مسألة المعتقد الإنساني، وعلى الرغم من العلاقة التي تجمع هذا النقد بالعلم، إلا أنّ تقويض ركائز الدين يؤلف المنطلق الرئيس لهذا النقد، يبدو ذلك في بناء المعرفة على الحس، وتفكيك سلطة الميتافيزيقا، وتحرير الضمير الأخلاقي من هيمنة العقيدة، وحوار يذهب إلى البحث فيما إذا كان الإنسان بحاجة إلى معتقد، وهل يحمل بين جنباته إيماناً طبيعياً؟

كان لشكّيّة هيوم أثرها العارم على القادم من فلسفات القرن العشرين، عبر مسألتين أساسيتين دافع عنهما هيوم بشراسة عقلية شديدة، وهما:

1 - الشك في بدايات العقل، وهدم حقل الميتافيزيقا، فمن الأجدر بالنسبة إلى هيوم رمي كلّ التراث الميتافيزيقي إلى اللهب، وعند الحديث عن الميتافيزيقا يكون الدين من أهمّ النصوص الميتافيزيقية التي يجب أن يلتهمها لهيب النار الحارق، لم يعد مبدأ العليّة مبدأً عقلياً، بل هو صلة جامعة بين علة ومعلول يبدها التتابع في إطار التجربة الإنسانية، أمّا عن حدود العليّة فهي لن تكون البتة مبدأً عقلياً، وعند الحديث عن العلة لا بدّ ألا نمكث في مجرد العلة القائمة في عالم الظواهر الطبيعية، بل علينا أن نتابع إلى حد العلة الأولى للكون، فهي غير معقولة، وليست إلا تتابعاً وعادة ألفها التفكير الإنساني، هنا يعمل النقد الهيومني على تحرير الإنسان الحديث من المعتقد.

2 - لا وجوب من الوجود، وهي المقولة الهيومنية الكبرى التي مثلت بداية الفلسفات الوضعية والعلمانية القادمة في أفق القرن العشرين، ماذا يعني الفصل بين القضايا الوصفية والقضايا المعيارية؟ إنّه فصل بين احتمال الوجود الإلهي والأمر الأخلاقي، هو تحوّل للأخلاق نحو الضمير الإنساني الحر، وتثبيت الأخلاقية

10- Lalande: *vocabulaire technique et critique de la Philosophie*, 17 éme, édition, 1991, P U F, P 916

في التجربة الإنسانية الوجدانية، وقد تخلصت من كل الإملاءات الفوقية التي يقتضيها الدين، وهكذا مثلت فلسفة دافيد هيوم نقطة تحوّل شديدة الأهمية في مسار العلمنة وتحرير الضمير الإنساني من سلطة الدين.

يُعدّ الموقف الهيومني من الدين خلاصة لمسار نقدي لطبيعة الفهم، وقد تجلّى هذا المسار في نقده الحسي لطبيعة المعرفة، وتفكيكه لعرى البدايات العقلية التي جعلها ديكارت شرطاً للمعرفة الصحيحة، ولذلك كان رمي هيوم لكلّ منتج معرفي لا يمتثل لمعيار التجربة الحسية في اللهب، تحرير للوعي الإنساني من عرى التمثلات العقلية، ومن ثمّ ستتحصر المعرفة الإنسانية في مجرد المعرفة التي تتيحها التجربة الحسية، فما مصير المعارف التي يستحيل معها الإثبات الحسي، ونعني وجود الله الذي يُعدّ غير معروف بالنسبة لوسائل المعرفة الإنسانية؟ فهل يستطيع أيّ دليل إثبات وجود الله؟ إلى أيّ مدى يكون للدليل الأنطولوجي النجاعة في إثبات وجود الله، وقد تفكّكت عرى مبدأ العلية عبر النقد الإبستمولوجي؟ هل يستطيع الدليل الطبيعي إثبات وجود الله، وقد انتهت مهمّة العلة حتى على مستوى الأحداث الطبيعية؟ أي دين جديد يحلّ مقام الدين القديم، وقد تمكّن الإنسان من ذاته، وبدا أنّه المسؤول الأكبر عن تحسّس الحقيقة؟

يكون التفكير حول الدين تفكيراً في البراهين على وجود الله، وهنا ترتبط مهمّة البحث بمسألة رافقت سؤال اللاهوت في العصور الوسطى، وهو سؤال العلاقة بين العقل والإيمان، إذ يخلص هذا اللاهوت إلى أنّ العقل يتمكن من تقديم الدليل على وجود الله¹¹، سينهدم الدليل حتماً عندما يكون العقل صفحة بيضاء فاقدة لقدرة الدليل، فماذا عن حضور المعلم الأول حضوراً داخلياً منذ المحاورات الأوغسطينية؟¹²

أولاً: نقد المعرفة - هيوم ونهاية سلطة اليقين:

تُعدّ فلسفة هيوم لحظة فارقة في صيرورة الأنوار، إذ لم تكن استفاقة كانط من سباته الدوغمائي إلا خلاصة متأنية لقراءة رسالة في الفهم البشري، وهي القراءة التي حينت سؤال الفلسفة النقدية وتتابعاته التي شملت حقولاً إنسانية أخرى، ونعني بها الأخلاق والدين، فأمام عسر التدليل على وجود الله، يحتمي فيلسوف كوسمبرغ بالدليل الأخلاقي، وقد أصبح الدين تابعاً للأخلاق، بعدما فصله هيوم عن كلّ ممكن معرفي، وهنا يدخل العقل الغربي في مرحلة تعميم الانفصال عن الدين، عندما يصبح الإنسان علامة على القانون الأخلاقي.

كان هيوم قارئاً جيداً لمسار العصر، عصر انحدرت فيه المسيحية، وقد أثارت الكثير من شغب اللاتسامح، وعلا فيه العلم ليجبّ تاريخاً طويلاً من هيمنة الروح الوثوقية، فمن الواجب إذن بناء فلسفة تتلاءم مع العلم، وتستنهض الهمة لإزالة اللاهوت من مجال التفسير الإنساني، وعليه سيستلهم هيوم الروحيين

11- Sous La direction de Michel Blay: **Grand Dictionnaire de La Philosophie**, CNRS Editions 2005, Paris P921

12- انظر، حسن حنفي: نماذج من الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى - أوغسطين توما الإكويني - التنوير ببيروت، لبنان، د ط، 1981، ص

البيكونية والنيوتينية، لكي تجد المعرفة تماسكها الداخلي، وتبني على خلاصة التجربة الحسية، وتستجيب الفلسفة لتطلعات العلم، الأمر الذي يقتضي إنهاء سلطة الدين على الروح التفسيرية للإنسان.

كانت الشكّية الهيومية خلاصة لانخراط هيوم المبكر في النقاش المعرفي الجامع بين فلسفات لوك ونيوتن وبركلي، غير أنّ لوك سيعتلي مقام الريادة في أثره الحاسم على إبستمولوجيا الأفكار الهيومية، فكانت دراسة في الطبيعة البشرية منطلقاً للكشف عن طبيعة الفهم البشري، ولا ريب أنّ المفهوم البيكوني للنفسانية سيقف خلف التحليل العميق للمعرفة الإنسانية، الأمر الذي سيجلي غموض اليقين، ويحين السؤال عن حدود اليقين، فما حقيقة المعتقدات الإنسانية؟ هل هناك من سلطة للعلاقات المعرفية قد تتحصن ما وراء الحس؟ ماذا عن أصل المعرفة؟

1 - سلطة الحس وهشاشة العقل: سيفكك هيوم ذلك التلازم القائم بين الانطباعات والأفكار، إذ لا تعدو هذه الأخيرة أن تكون مجرد نسخ عن الانطباعات، بمعنى أنّ الأفكار هي مجرد انعكاسات باهتة للأحاسيس على مرآة الوعي الإنساني، لذلك ستفقد الأفكار حصانتها العقلية المنيعّة، لتؤلف نهاية الاعتقاد بوجود المبادئ اليقينية، هي النتيجة الضرورية للعلاقة الجامعة بين الانطباعات والأفكار¹³.

وهكذا ينكر هيوم وجود المبادئ الأولية، فالأفكار ما هي إلا تجلٍ للأشياء الجزئية يجمعها جامع اللغة، أمّا اليقين الحقيقي فيأتي من التجربة، وبهذا ينتهي تأثير المبادئ الأولى للعقل على الصياغة اليقينية للمعارف.

إنّ التقسيمات الهيومية للأدوات المعرفية تنتهي إلى الإقرار بالمصدر الحسي للبحث للمعرفة، وحينئذ لا وجود للأفكار الفطرية أو المبادئ القبلية، إذ الانطباعات والأفكار تنقسمان إلى شكلين من الإحساسات البسيطة والمركّبة، وفيما يتعلق بظهور هذه الإحساسات في العقل، فإنّ الانطباعات البسيطة تسبق دائماً الأفكار البسيطة، أمّا عن الأفكار المركّبة فأصلها هي الانطباعات البسيطة، بما أنّها نسخة من الانطباعات المركّبة، وهكذا يفرد هيوم للعقل دوراً سلبياً، فهو مجرد مشاهد حيادي لا يملك عتاد اليقين. فلا وجود لأساس متين لكثير من الأفكار التي ظنّ الإنسان أنها متمكنة من العقل، مثل مبدأ الهوية والجوهر ومفاهيم أخرى تحظى بيقين العقل، وهي المبادئ التي تعني الأساس المتين للعلة الأولى، فهل الله بوصفه فكرة جوهرية ممكن الوجود¹⁴؟ كيف يمكن التصديق بالأخبار التي تؤلف مجال الدين؟ هل من الممكن بناء واجبات على الاعتقاد بوجود الله؟ هنا تنتهي القاعدة المتينة للتخلق المرتبط بالدين، وسيمتلك الإنسان قدرة ذاتية في الاعتقاد والعمل بالاعتقاد، فما هي إذن الديناميكية الفاعلة في مجال الأخلاق الإنسانية؟

لن يقتصر النقد الهيومى على تقويض قدرة الأفكار الفطرية، بل اتجه إلى اعتبار النفسانية الإنسانية خاضعة لقانون الجاذبية، وهي ضرب من الآلية التي ترتب الأفكار، ذلك أنّ الملكيتين اللتين تعالجان الأفكار،

13- Hume: *L'entendement - Traité de la nature humaine* - traduction Philippe de Baranger et Philippe, GF-Flammarion, 1995, P41

14- Ibid., P158

وهما الخيال والذاكرة، تكمن وظيفتهما في حفظ الأفكار وفقاً للترتيب الذي دخلت به إلى العقل¹⁵، وفي اختيار الأفكار التي تريدها، هو اختيار لا يعني الاعتبارية، بل إن هناك ترابطاً بين الأفكار المختارة، فكل فكرة تجذب الأخرى المترتبة معها، ولذلك تؤلف المعرفة حقلاً من المترابطات التي تجعل كل الأفكار لها مراجعها النهائية التي تعني في نهاية المطاف الخلاصة الحسية البحتة، فهل تكفي فكرة وجود الله بذاتها وتتأى عن التحليل الإبستمولوجي الذي يقرّ بتهافتها؟

2 - اللايقين في كلّ علة - نهاية اليقين في العلة الكونية: يُعدّ النص الذي وسمه هيوم بـ«طبيعة الفكرة أو المعتقد»، نصاً فاصلاً في تحليله لمسار الأفكار والمعتقدات، فنحن نؤمن بمجرد وجود الأفكار عن الموضوعات ونربط العلاقات بين العلل والمعلولات، وستكون نتيجة التفكير لدينا خلاصة لمسار استدلالنا ينطلق من مجرد الاعتقاد بفكرة، ليصل إلى الاعتقاد بوجود موضوع من الموضوعات، «فعندما نعلن وجود الله، فإننا نؤلف مجرد فكرة حول هذا الموجود»¹⁶، ففي تقصي أصلها تبدو أنها خلاصة لفكرة لا تريد ولا تنقص من هذا الاعتقاد، لا دليل لها في مجال اليقين الحسي المتحقق عينياً.

انتهى تفكيرك قدرة الأفكار الفطرية في الإمداد بالمعرفة اليقينية إلى اعتبار العلاقة بين العلة والمعلول مجرد تتابع بين الأحداث، يجري بسبب التوالي بينهما، أما عن وجود علاقة ضرورية بينهما فذلك أمر يفتقد إلى البرهان، كما لا يمكن التدليل على العلاقة بين العلة والمعلول تعليلاً قليلاً، إنها مجرد تتابع يعتقده الانطباع الإنساني، ولهذه النتيجة الهيومية أثرها المباشر على تفكيرك عرى العلاقة بين الاعتقاد الإنساني والوجود اليقيني للعلة الكونية.

وهكذا تكون العلية خطأ منطقياً، ولكن الفلاسفة اعتبروه حقيقة، إن فكرة العلية تعني مجرد تتابع بين شينين متتاليين في الزمان والمكان، قد لا يحدثان النتائج نفسها في علاقات أخرى متميزة. ولأنّ عقلنا قد ألف هذا التتابع يبدو له أنها علاقة ضرورية منطقية، «وعموماً فإنّ تجربة الأنا تتلخص في سيل الإحساسات، بمعنى أنّ الأنا ليس جوهرًا، هي حامل للانطباعات، فكلّ تحليل يبرهن على عدم وجود أسس ميتافيزيقية، بل هناك مجرد احتمالات ترتبط بالحس المشترك»¹⁷، فكلّ معالم الإسناد اليقيني فقدت قدرتها، لم يعد هناك من سند للعقل البشري ليطمئن لمعتقداته.

إذن تكون العادة هي المسؤولة عن تأليف مبدأ العلية، فالتكرار المتواصل للأحداث، وارتباطها ببعضها بعضاً هو الذي يخلص التصور الخاطيء عن وجود مبدأ العلة، بهذا تكون الرابطة الضرورية مجرد وجود في العقل لا أساس له من المنطق أو الواقع.

وعموماً تنتهي الشكّية الهيومية إلى تثبيت اللأدرية على مستوى العلم، غير أنّ تقويض الاعتقاد في وجود العلة الكونية يؤلف الغاية الأخيرة لفلسفة هيوم، ليكون المبدأ المرجح لمعقولية العلم مجرد تتابع

15- Op.cit., P P50 51

16- Ibid., P158

17- Encyclopédie De La Philosophie, PP 489 490

للحوادث، يفتقد للعلاقة الضرورية، إنه عادة يعتاد عليها العقل، إنَّ هذا الشك الهيومني في مبدأ العليّة وفي جميع الاستقراءات التي يكون مبدؤها التجربة، أحدث تصوراً للاحتمالية على جميع الأصعدة.

تقف الأنا خلف تفسير العلاقات التي تبدو لأول وهلة على أنها موضوعية، وعليه تغادر الفلسفة ميدان الميتافيزيقا التي تبحث في الوجود عن مصدر مبدأ العليّة، إنّ الذات التي تؤسس مبدأ السببية عند هيوم هي الذات الطبيعية التي تستجمع في النفسانية، وبذلك ستتأسس عملية الاعتقاد على العاطفة¹⁸، لتفقد متانتها الكونية، ولأنَّ الأخلاق هي أشدّ الحقول حاجة للمبادئ الكونية، فهل تتمكن الفلسفة الهيومنية من تأسيس الأخلاقية، وقد تمّ تقويض كل الأسس؟

ثانياً: الأخلاق والعواطف الطبيعية، ضرورة انفصال الأخلاق عن الدين:

كان في ترسيم الديانة المسيحية من قبل السياسة تحوّل لها من ديانة للمحبة إلى ديانة للتسامح، فكان الاضطهاد سمة القرون الأولى لامتداد المسيحية في أوروبا، اضطهاد ضد الأديان الأخرى، وضد من يوصفون بالهرطقة، سواء أكان ذلك من طرف البابوية التي ترسم مذهباً بعينه، أم من قبل الحكام الذين انخرطوا انخراطاً كلياً في المهمة الدينية السياسية، الأمر الذي أحدث حرب الكلّ ضد الكلّ، فكان أول مطلب أمام العقل الغربي الحديث هو وجوب تجاوز حال الحروب الدينية، وبناء فضاء الحرية الدينية، وفلسفة التسامح التي تحيّد العقيدة من حياة البشر.

لذلك ركّز الجدل الأخلاقي في الفلسفة الإنجليزية، على تخوم الزمان العلماني، على إنشاء مبادئ أخلاقية تنفصل كليّة عن الدين، يكون موقعها التجربة الإنسانية البحتة، مركزاً بذلك على كيفية بناء مبادئ أخلاقية إنسانية صادقة خارج حدود الدين، بما أنّ الدين قد يؤدي إلى عقائد فاسدة وسلوك فاسد تابع لهذه العقيدة، لذلك كان النقاش الفلسفي دائراً حول وجود تجربة لتخلق إنساني مشترك، بوصفها قاعدة عامة بين البشر، بعيداً عن الأوامر الإلهية الضاغطة.

قام الجدل الإيتيقي داخل الفلسفة الإنجليزية حول نجاعة المعايير الأخلاقية، إنه جدل بين المنفعة الأنانية ونظرية الأمر الإلهي، والنظرية العقلية، نقاش تحول إلى البحث عن مواقع أخرى للتجارب الأخلاقية، فهل من الممكن أن تنكشف قدرة أخرى لقوة التجربة الأخلاقية، تستوفي شروط الأخلاقية مؤسسة للموضوعية؟ هل تتمكن المنفعة من استيعاب منطق القيم الأخلاقية؟ كيف يتمّ تعويض الدين في مجال التقنين للسلوك بعدما بدأ يخفت تأثيره على الحياة العقلية؟

رداً على السؤال الباحث عن مركزية أخلاقية أخرى، دافع أصحاب الحاسّة الخلقية على ضرورة إخراج مفهوم الأخلاقية من وضعه الأناني إلى ما قبل التجربة الأنانية، فالبشر يمتلكون قدرة فطرية معرفة للخير

18- Dictionnaire des Philosophes, Albin Michel, 1996, P739

والشر، وهو الموقف الذي مثلته نظرية الحس الأخلاقي عند كل من هاتشنسون وسفتيبيري، فلن يؤلف الدين مرجعية الأخلاق، لتنبني إذ ذاك الأخلاق على التجربة الإنسانية البحتة.

لقد انخرط هيوم في النقاش الفلسفي المُسائل عن طبيعة الأخلاق، بعدما تبين في نقده الإستيمولوجي انفصال الوجود عن الوجوب، فكان نقده للمبادئ القبلية للمعرفة مقدمة ضرورية لاستيعاب موقفه من الأخلاق في علاقتها بالدين¹⁹، خاصة أن المطلب الأساس هو فصل المبادئ الأخلاقية عن التعصب الديني الذي قد يضرّ بالتسامح الإنساني، وهي الخلاصة التي انتهى إليها كتابه رسالة في الطبيعة البشرية، فكيف يمكن بناء أخلاق خارج حدود المراجع الدينية والميتافيزيقية؟

تنفيذاً لبناء الأخلاقية على مصادر التجربة الإنسانية الخالصة، يقدم هيوم لبناء نظريته الأخلاقية بنقد للمعايير الأخلاقية، ومنها النظرية العقلية ونظرية الأمر الإلهي، إذ النظرية العقلية تعتبر أن المبادئ الأخلاقية مبادئ عقلية قبلية سابقة على كل تجربة²⁰، في حين أن العقل حيادي تجاه القيم، ولا يتمكن من تصور ما يجب أن يكون، إنه عاجز تماماً أمام مسائل القيمة، بما أنه لا يتمكن من ربط القيم بالوقائع، فوظيفة العقل هي الحكم بالخطأ والصواب وليس بالخير والشر²¹، كما أنه لا يوظف لدى الإنسان الدافع إلى الفعل، وبالتالي فهو خامل إزاء القيم، كما أن الأفعال الأخلاقية لا يمكن أن توصف بالمعقولة وعدم المعقولة، بما أن الأخلاق غير قابلة للإثبات أو للبرهان، فهي لا تنتمي إلى نظام الوقائع. فالخير والشر مجال لحركة العواطف الإنسانية²²، وعليه فإن النظام الأخلاقي ينتمي إلى نظام العواطف وليس إلى نظام العقل، الأخلاق لا تتعقل، بل هي مجال للحس العاطفي.

سيركز هيوم على نقد معيار الدين، بما أن غاياته النقدية امتثلت لإخراج مجال التصور الإنساني من إطار التجربة الدينية المهيمنة، وهنا ذهب إلى البحث في الطبيعة البشرية عن مبادئ للتخلق، وإنجازاً لهذه المهمة سيؤسس هيوم قانونه الذائع الصيت، فاصلاً بين أحكام الوجود وأحكام الوجوب، فليس من أمر أخلاقي يرتبط بوجود مفترض، إنها علاقة وجود الله بالأخلاق، وهنا تخرج الأخلاق من إطار الرهانات اللاهوتية، وتصبح في مجال التجربة الإنسانية الخالصة. وبهذا رفض هيوم إرجاع الأخلاق إلى الإرادة الإلهية، وهو بصدد الرد على أولئك الذين يقيمون الأخلاق على الأمر الإلهي²³.

ما هي إذن أسس الواجب الأخلاقي؟ من الواجب فصل الأخلاق عن الدين، ولذلك ينتهي النقاش إلى ضرورة تحييد الواجب الأخلاقي عن كل مصدر خارجي، إذ يجب أن تركز الحياة الأخلاقية على حسّ مشترك يؤدي إلى التعرف على الأحكام الصائبة، بما أنه حسّ طبيعي يتميز بصفة التعرف المشترك على

19- Hume: La morale-Traité de la nature humaine III, Flammarion 1993, P 51

20- Op.cit., P 52

21- Ibid., P52

22- Ibid, P71

23- برنار مايو: فلسفة الصواب والخطأ، مدخل إلى النظرية الأخلاقية، ترجمة وفاء عبد الحليم محمود، دار الوفاء، لدنيا الطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 2006، ص 240

الأحكام الأخلاقية، لقد أراد هيوم أن يجعل الأخلاق إنسانية، ففي إطار التجربة الإنسانية يمكن أن يفعل الإنسان أخلاقياً، وبهذا فقد انتهت فلسفة هيوم إلى شكية فصلت فصلاً كلياً الأخلاق عن الدين²⁴، فما هو مجال التخلق إذن؟

1- العاطفة الأخلاقية - أساس الواجب الأخلاقي: تنبني الأخلاق على العواطف، فلإنسان عاطفة خاصة تثار أمام القضايا التقويمية، عاطفة أساسها الاستهجان والاستحسان، ومردّ هذه العاطفة إلى ما تثيره فينا من لذة وألم، سيؤكد هيوم أنّ الحالة القيمية ليست حالة واقعية قائمة في الشيء، بل هي عاطفة تنبعث، إذا كان الأمر بصدد قيمة ما، فقيمة الجمال مثلاً لا تُعدّ صفة قائمة في الموضوع الجميل، ولا تنحصر في العلاقات الموضوعية، والجمال لا يوجد إلا في من ينبعث الشيء بأنه جميل. بهذا يكون الجمال ردّ فعل عاطفي انفعالي صادر عن الطبيعة البشرية، يثار مباشرة عند اللقاء بين الإنسان وهذا الموضوع المثير للاستهجان أو الاستحسان، والأمر ينطبق على مسائل القيم الأخرى، وخاصة الأخلاق.

هكذا لا يكون الخير والشر موضوعين قائمين في الأفعال، بل هما حالة عاطفية، لذلك تكون الأخلاق نسبية وذاتية، والواجبات مجرد حالة من عاطفة، تنبعث أمام الأحوال التي تثار فيها العاطفة الأخلاقية، وليست مبادئ موجودة في ذاتها. تكون إذن الأخلاق شكلاً من الذوق الإنساني المشترك الذي ينبعث من الطبيعة الإنسانية، والعواطف بوصفها أساس المواقف الأخلاقية هي ضرب من التعاطف الإنساني الطبيعي²⁵.

وعموماً فإنّ القانون الأخلاقي ليس إلا عاطفة إنسانية تنبعث من الطبيعة البشرية، فلا يمكن لنا أن نقيس قيمة الفضيلة على قانون أخلاقي يتحصن خلف مبادئ قبلية صارمة، بل إنّ الفضيلة تتحدد حسبما يحيل إليه الذوق الأخلاقي²⁶، بهذا يؤسس هيوم الأخلاق بمنأى عن الدين، ويجعلها قائمة في الخبرة الإنسانية، ترتفع بالميل والعواطف والأذواق الفردية.

ثالثاً: جدل الشك الهيوم والدين الطبيعي:

لقد تركت تربية هيوم على مبادئ المسيحية المتشددة أثراً شديداً على مساره الفلسفي، إذ تربي دافيد الطفل على يد عمّه القس المتعصب للمسيحية، ممّا أورثه بعد ذلك كرهاً شديداً للمسيحية²⁷، ليكون مسيحياً مخلصاً للمسيحية في طفولته، بينما سيفقد إيمانه بالتدريج، وهو يطلع على العلم والفلسفة، خاصة كتاب كلارك برهان على وجود الله الذي جاء بعكس غايته المرجوة.

24- Sous la direction de Monique Canto-Sperber: **Dictionnaire d'éthique et Philosophie morale**, P U F, 1ère édition, 2004, T1, P 866

25- Hume: **enquête sur les principes de la morale**, Flammarion, 1991, P67

26- Hume: **La morale-Traité de la nature humaine III**, P54

27- عبد الرحمن بدوي: **الموسوعة الفلسفية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، لبنان، ط 1، 1984، ج 1، ص 612

تميزت إنجلترا في بداية العصر الحديث بسجال عنيف بين المذاهب الدينية، الكاثوليكية والبروتستانتية، وهو صراع تأجج بتزايد الصراع السياسي في البلاد، منذ استتباب نظرية الحق الإلهي، تمثل خاصة في حدث انفصال هنري الثامن عن البابوية، وإدخاله للبروتستانتية إلى إنجلترا، فقاد التعصب الديني إلى العنف بين المذاهب الدينية عامة، وإلى حرب الكل ضد الكل، تمكيناً لمذهب على آخر، ولذلك جاءت صيحات الدعوة إلى التسامح بداية من القرن السادس عشر، لكنّ الحروب الدينية اشتعلت في أوروبا، واستدعت ضرورة بناء فكر حر يتجاوز إملاءات الكنيسة، وكذلك فصل الدين عن السياسة، وإنشاء تشريع إنساني يلائم الحداثة القادمة.

ويعدّ جون لوك من أهمّ الفلاسفة الداعين إلى الخروج من حال حرب الكل ضد الكل، وأنّ ذلك لن يكون إلا بتحوّل الدين إلى دين فردي، إذ «الدين الحق شيء آخر، لم يوجد للنفخة المظهرية، ولا لسيطرة الإكليروس ولا للعنف، بل وجد لتنظيم حياة الناس وفقاً للفضيلة والنقوى»²⁸، سيرتبط الدين بالضمير الفردي، ويخرج من معركة السجال السياسي، ومن ثم ينزوي في ركن غير مؤثر على سير الأحداث.

لقد تميز موقف هيوم من العقلانية اللاهوتية والمسائل الدينية بالموقف النقدي الشديد، بل تبدو الفلسفة الهيومية محاولة عميقة لفصل الدين عن عرش سلطته المتحكمة، ففي كتابه حوارات حول الدين الطبيعي يرصد هيوم دلائله الشكية لتنفيذ الدليل الطبيعي على وجود الله، وهنا يرتكز على موقفه السابق من وجود علاقة العلية²⁹، لتسعه الفلسفة القديمة في إزالة الاعتقاد بوجود علة حكيمة تدبر الكون، إنه الدليل الأبيقوري حول وجود الشر في العالم، يقوض وجود علة التدبير الحكيم لهذا الكون، كما أنّ الشك هو نهاية استدلالنا على وجود هذه العلة، مهما أراد العقل إجهاد نفسه في البحث عنها³⁰.

إنّ الاعتقاد الإنساني بوجود الإله يعود بجذوره إلى النفسانية الإنسانية، ففي كتابه التاريخ الطبيعي للدين يرجع هيوم أصل الدين إلى عاطفة الخوف التي تهزّ الإنسان بما أنّه جاهل بأسباب الظواهر الطبيعية، مثل المرض والكوارث الطبيعية، إنّ الدين يُعدّ بالنسبة للإنسان إجابة عن كل هذه المخاوف التي يشعر بها، وهو عاجز عن أداء مهمة التفسير الصحيح، وهنا ارتهن تفسيره بالمسار الثقافي للمجتمعات البشرية، فتجلى في تعدد الآلهة حيث لكلّ إله مهمة تفريغ كربة من كرب الإنسان، إلى حد حصول الفهم التوحيدي بإله واحد.

بهذا يُعدّ كتاب حوارات حول الدين الطبيعي خلاصة لمسار فلسفي شكي، وبياناً فاصلاً عن الموقف الهيومني من الدين، وهو موقف يتميز بعدم الوضوح، بما أنّه لم يبيّن إذا كان الفيلسوف ملحداً أو هرطقياً أو لا يؤمن بدين على الإطلاق، سواء أكان ديناً سماوياً أو طبيعياً، بل سار في الاستدلال الشكي دون بيان نتيجة مرجوة.

28- جون لوك: رسالة في التسامح، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1986، ص 65

29- Hume: *Dialogues sur la religion naturelle*, P115

30- Ibid, P77

سيشير هيوم ناقداً للدلائل على وجود الله، وعلى رأس هذه الدلائل الدليل الكوسمولوجي الذي يركز على النظام السائد في الكون بوصفه علامة فاصلة، تدلل على وجود علة أولى له، ثم ينتهي إلى تنفيذ جميع الحجج التي تبرهن على وجود الله، ليخلص إلى أنّ الإيمان بوجود إله ليس أمراً طبيعياً في الإنسان³¹. ويبدو أنّ هيوم قد بنى موقفه من الدين على نتائج نظريته في المعرفة بالشك في مبدأ العلية، بل يكون هذا تجلياً إستيمولوجياً لتنفيذ كل دليل على وجود الله، ونفي التسلسل العليّ على وجود علة كونية لهذا العالم.

أمّا في كتابه التاريخ الطبيعي للدين، فقد خلص هيوم إلى أنّ التدين ليس فطرة و غريزة في الإنسان، ودليل ذلك أجناس كثيرة لا دين لها، ففي جميع الأحوال لم يكن الناس يؤمنون بالإله الواحد، بل كانوا مشركين يعبدون الأوثان، ولم تكن لديهم فكرة عن العلة الأولى العاقلة المدبرة للكون³²، لذلك ينتهي هيوم إلى الإقرار باحتمال وجود إله، ولكنه احتمال لن يرقى إلى مستوى قوة الدليل العلمي، منطلقاً في ذلك من فكرته حول استحالة الانتقال من الوجود إلى الوجود.

وعموماً فقد قرّر هيوم أنّ الإيمان بوجود الله ليس شيئاً فطرياً وطبيعياً في الإنسان، والدليل على ذلك هو وجود شعوب بأكملها لا تؤمن بوجود الله، ولا تملك فكرة عن وجود الإله، «وإن كان هيوم في محاورات في الدين الطبيعي، يرى أنه لا مانع من احتمال أن يكون هناك إله [...]»، كما أنّ هذا الإله لا يشبه إله الأديان، إلا من بعيد جداً، ولذلك رأى أنّ العناية الإلهية وخلود النفس وسائر صفات الله، وكلّ قصة الخلق كما تؤمن بها المسيحية وكلّ الأخرويات هي في رأيه مجرد خرافات³³، فهناك الدين الصحيح والدين الفاسد، فبالنسبة للأول يتميز بالندرة، أمّا الثاني فهو السائد، وهو متميز بالخرافة والحماسة، ويثير الكثير من الشغب والقلق، بينما الدين الصحيح يشيع النظام وروح الاعتدال، ويؤدي إلى الاستقامة، وهو نادر الوجود³⁴، سيكون هو الدين الملازم للإنسان وقد تخلص من قهر الكنيسة، دين الإنسان الحر والملتزم بحق المواطنة.

يُعدّ التأويل الذي أفرد هيوم للدين في حوارات حول الدين الطبيعي تأويلاً غامضاً، إذ لا يوضح موقفه إذا ما كان ملحداً أو معتقداً بوجود إله Déiste، لكن تبدو العقائد الدينية بالنسبة إليه صعبة المأخذ وغير معقولة في ذاتها، إذ يبذل العقل جهداً كبيراً لفقه المراد من العقيدة، وعلى خلاف العلم والأخلاق يبدو الدين فاقداً للضرورة في حياة الإنسان، فهو لا يمدّه بالمعرفة، ولا يمكن البتة أن يوجّهه عبر أوامره غير المعقولة والمقوضة للحرية الإنسانية، باختصار فإنّ موقف هيوم من الدين هو موقف العصر الذي عمل على إزالة الدين من الحياة³⁵.

31- Op.cit., P 125

32- عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، 1984، ج 1، ص 612

33- المرجع نفسه، ج 1، ص 617

34- Hume: *Dialogues sur la religion naturelle*, P 275.

35- Dictionnaire des Philosophes, P740.

خاتمة - عقل الأنوار والدين الإنساني البديل:

مارس فكر هيوم أثراً هائلاً على وعي الأنوار، فخلال زياراته المتكررة إلى فرنسا، عقد الفيلسوف علاقات مع فلاسفة الموسوعة، ليروا فيه الفيلسوف المستنير، الذي تمكن من فتح نقاش عقلائي رصين حول المعرفة، فدخل في مراسلات مع مونتسكيو والموسوعيين، واشتركوا جميعهم في تقويض أركان الدين القديم، وتوبيخه بدين إنساني بديل يمكن من التطلعات الإنسانية التي استقدمها زمان الإنسان المتحرر من عقدة الاعتقاد.

تشتبك روح الأنوار في اعتبار الدين في حد ذاته غير معقول، إذ للإنسان في قرارة نفسه عقيدة لا تملئ من السماء، بل هي طبيعية فيه، وفي تحليله لنشوء وتطور فكرة الدين، يعود عقل الأنوار إلى التفسير المعقول الذي يركز على عجز العقل في عهده الغابرة عن تفسير راجح للوجود بأسره، فكان إحداث أشكال من التفسير الذي يجعل الكون إلى حد ما يمتلك علة وجوده.

أمام هذا العجز عاد البشر إلى القوى الطبيعية ليؤلهوها، ثم اخترعوا ذواتاً يعبدونها، وهي الآلهة، تفسيراً لما يحدث من حوادث، وسموها بأسماء وربطوها بقدرات، وترجّوها عند حلول الكوارث، وهي مرحلة تعدد الآلهة، ويخلصون بعد ذلك إلى نمو التفسير البشري الذي سيحتفظ بصورة الإله الواحد إله السماوات، وإله ديانات التوحيد، لكن ألا تنتهي مهمة الدين من حياة هؤلاء وقد أثار العلم دربهم وتمكنوا من تفسير شديد الدقة لما يحدث من حوادث في الكون؟ بل تمكنوا من الطبيعة وأصبحوا قادرين على السيطرة عليها، ألا يحق للبشر أن يمكنوا لأنفسهم ديناً آخر يتلاءم مع قدرة الإنسان الفائقة؟

إنّه دين إنساني خالص يعمل على التمكين لمركزية الإنسان وعلوه، ولذلك سيركز فولتير على ضرورة أن نفصل الدين عن الدولة، فالدين الصحيح هو ذلك الدين البسيط الذي يعلم الكثير من الأخلاق والقليل من العقائد، ويهدف إلى المساواة بين البشر، هي الديانة التي لا تأمر الناس بالعقائد غير المعقولة والمستحيلة، وتقوم ضد الإنسان مضطهدة إياه، هي الديانة التي لا تؤدي إلى اختلال الحس المشترك، فلا تحافظ على نفسها بواسطة الجلاء، وتريق دماء الأبرياء مدّاً لسلطتها، إنه دين إله لا يجعل الملك تحت سلطة الكاهن، دين لا يعلم إلا حبّ الإله، والعدالة وتسامح الإنسانية³⁶.

من أجل مواطنة تستوفي شروط الأنوار، سيرتهن الدين عند روسو بفلسفته التي رصدت الطبيعة الخيرة كقاعدة لخلاص الإنسانية من سلطة الخطيئة الأصلية، فالإنسان ولد خيراً بطبيعته، ولذلك سيقرب «إميل» على فطرته السليمة دون تدخل العقائد الفاسدة، فهي مفسدة للروح، فلن يتعلم الطفل إلا الانسجام مع طبيعته الصافية.

وإتماماً لعقد الحرية الإنسانية، يكشف روسو عن أنموذج تربوي لا يعني التلقين السلبي للعقائد الدينية، بل يؤهل الطفل لكي يلقى الدين حسبما تقتضي روحه الطبيعية، لتكون عقيدة المواطنة هي الغاية من التربية،

36- Voltaire: Dictionnaire Philosophique, Edition Gallimard, 1194, P454

فيكون الدين متناسباً تماماً مع روح الحرية التي يكفلها العقد الاجتماعي، لذلك لن تكون من مهام الدولة مراقبة دين المواطنين، «وعليه يهّم الدولة أن يعتنق كلّ مواطن ديناً يحببه بواجباته، لكنّ معتقدات هذا الدين لا تهّم الدولة ولا أعضائها إلا بمقدار ارتباطها بالأخلاق وبالواجبات المترتبة على معتقداتها تجاه الآخر»³⁷.

هكذا لا يهّم الدين إلا بالقدر الذي يؤديه في تنمية شخصية الحق التي تميز المواطن، ذلك أنّ كلّ دين هو شأن شخصي لا يعني صاحب السيادة، بما أنّه يخرج من مجال اختصاصه. ولذلك سيتحول الدين عند روسو إلى عقيدة مدنية خالصة تختلف عن العقائد الدينية، بل هي مشاعر اجتماعية تكمل شخصية المواطن الصالح، لينحصر الدين المدني في أداء مهمّة التسامح والرفق بالمواطن.

ينجلي التأثير المزدوج لهيوم وروسو في بناء قواعد الفلسفة النقدية، بذلك التزاوج بين فهم حدود الفهم البشري، وبنية العقيدة الأخلاقية التي تؤلف قمة الرشد الإنساني في التشريع للواجب، لقد أصبح الدين موضوعاً للنقد في الفلسفة الكانطية، بما أنّه يتجاوز حدود العقل الخالص، ففي كتاب نقد العقل المحض تكون مسألة وجود الله مسألة شديدة الارتباط بالمعرفة، فلا يمكن للعقل المحض معرفة الله، بما أنّ كلّ معرفة لا تتأسس على التجربة هي معرفة غير معقولة، ليقع الله خارج حدود المعرفة العقلية، ولن يكون موضوعاً من موضوعات العلم، إنما هو بداهة تابعة لمفهوم الخير الأسمى، لا إمكان لمعرفة الله، بل يتجلى في بداهة الإرادة الخيرة الإنسانية³⁸، وهكذا يبيّن كانط استحالة التدليل على وجود الله داخل إطار التجربة، ليكون الإله بداهة تتبع القانون الأخلاقي، ومن ثم سيؤلف الدين حقلاً تابعاً للأخلاق، فما يهّم هي واجبات الإنسان، وقد استكمل مسار رشده فأصبح مشرعاً من ذاته.

وعموماً استجمع العقل الحديث غايته النقدية، في بناء إنسانية جديدة تحرّرت من عقيدة عبادة الإله الإنسان، واستكملت وجودها من فلسفة الإنسان الحر، لقد ذهب هيوم إلى ما وراء دين الكنيسة الذي عاث في الأرض فساداً، ليبحث في طبيعة المعرفة الإنسانية عن حدود اليقين، فارتفعت خلاصة المعارف البشرية بالتجربة الإنسانية الخالصة، وقد تجاوزت كلّ إملاء من خارجها، لقد أصبحت بداهات الإيمان مجالاً خصباً للنقد الإبستمولوجي، فتبيّن أنّ العقل الإنساني صفحة بيضاء، لا يحمل فكرة يقينية.

37- روسو: في العقد الاجتماعي، ترجمة ذوقان قرقوط، دار القلم بيروت لبنان، د ط، د ت، ص 211

38- كانط: نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة، مركز النماء القومي، بيروت لبنان، د ط، د ت، ص 296

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



مؤسسة بدون حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث

الرباط – أكادال، المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com